

الفلسفة الأنجلوسكسونية: المفهوم والخصائص

زروقي نامر

قسم الفلسفة، جامعة وهران 02 محمد بن أحمد، الجزائر.

مقدمة

جاءت الفلسفة كمحصلة لإسهامات العديد من الشعوب ولا ينفرد بها شعب معين ، فتاريخها هو تاريخ التعدد والتنوع والإختلاف. ففي كل عصر من العصور تعكس أحداث عصرها ،ومن ثم يصبح من الضروري على الإنسان أن يهتم بكل الإنجازات التي قدمها العصر ،سواء كان ذلك في المجال الفكري أو الحياتي. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الفلسفة تمثل تلك الثمرة الفكرية التي يخرتها العصر والتي تكشف بدورها عن علاقتها بمختلف الابتكارات التي توصل إليها الإنسان ،فالفكر الإنساني لايعرف التقطع ولا الفواصل ، كما أنه لا ينشأ من العدم و إنما كان دائما وليد الأفكار السابقة، حيث أن الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة حسب التقسيم الجديد لها ، تضم الفلسفة القارية والفلسفة الأنجلوسكسونية . اللتان تشملان تيارات فكرية انتشرت أفكارها ابتداء من القرن السابع عشر إلى يومنا هذا.

وبالتالي فإن الحديث عن الفلسفة الأنجلوسكسونية قد لا يتم إلا من خلال الحديث عن الفلسفة الإنجليزية والأمريكية ،وهذا كله لايتسنى لنا إلا من خلال الحديث عن الفلسفة الغربية الحديثة ، ولا نستطيع أن نتكلم عن هذه الأخيرة بدون أن نشير إلى الإرهاسات التي سبقت نشأتها، وأقصد بذلك الظروف التي سادت عصر النهضة وهيأت العقل الغربي الحديث، لينشئ مرحلة جديدة في الفلسفة هي ما يصطلح عليها بالفلسفة الحديثة. والصعوبة الأكثر حدة التي تصادف أي باحث في نشأة حقبة فكرية معينة تتمثل في نقطة البداية؛ فلا يوجد أحد أراد كتابة تاريخ مرحلة فكرية معينة إلا ووجد نفسه مربكاً في اختيار هذه النقطة ، ومهما كانت الواقعة التي يختارها لذلك، كنقطة البدء للتأريخ، إلا ويجد أنّها مشروطة بحدوث أخرى، وبالتالي كل تأريخ لفكرة أو لمدرسة فكرية أو تيار فلسفي ،لن يبدأ سوى بأكثر أو بأقل من نقطة بداية تحكّمية واعتباطية فقط وليست ضرورية، وتاريخ الفلسفة الحديثة لايتسنى من هذا الاعتبار(1). وهكذا يصعب تحديد نقطة بداية دقيقة لنشأتها، اللهم إلا إذا كان ذلك على سبيل الاتفاق. لقد حدثت مرحلة انتقال هامة بين فترة تراجع العصور الوسطى والقفزة الكبرى في القرن السابع عشر، وبرزت حركات حدّدت معالم فترة الانتقال هذه؛ إذ يكاد يتفق مؤرخو العصر الحديث على أربع حركات كبرى: **أولاً/ النهضة الإيطالية**: أو ما تعرف بالمرحلة المتقدمة لعصر النهضة العام حيث إحياء الفنون والآداب، لكنّها لم تأت بأعمال كبرى في ميدان الفلسفة، لأنّها كانت فترة إعادة كشف للمنابع لا مجرد تأمل فلسفي واسع النطاق(2)، ماعدا جانب الفلسفة السياسية الذي برز فيه "نيكولو مكيافيلي" [1469-1527]، وكتابه المشهور "الأمير". ثانياً/ **النزعة الإنسانية**: التي اقتصر تأثيرها على المفكرين أمثال "إرازموس" [1466-1536]، و"توماس مور" [1478-1535] الفيلسوف الإنجليزي المشهور بكتابه "التيوبيا" **Utopia** وغيرهم، وسميت كذلك لإهتمامها بالإنسان الفرد وبتحقيق ذاته في هذه الحياة الدنيا. ثالثاً/ **حركة الإصلاح الديني**: داخل الكنيسة المسيحية التي حاربت وساطة الكنيسة مع "مارتن لوثر" [1483-1546] وغيره. رابعاً/ وأخيراً: **حركة إحياء العلوم**: مع "كبرنيكوس" [1473-1543] و"تيكو براهي" [1546-1601] و"كبلر" [1571-1630]..... الخ.

وتبرز معالم الفلسفة الحديثة عندما نقارنها بسمات الفلسفة السابقة عنها، وهي فلسفة العصور الوسطى أو الفلسفة المدرسية أوالسكولائية كما يصعب على كل دارس وضع حد فاصل بين الفترة الوسيطية والحديثة بصورة مطلقة. لكن على الرغم من ذلك كلّه، تبدو الفترة الوسيطية فترة متميّزة بخصائص عامة ليست فاصلة بمعناها الدقيق، وأهمّها خاصيتان: **أولاً/ خضوع التفكير للدين**، والفلسفة للعقيدة، و**ثانياً/ إهمال النزعة العلمية**. أمّا عصر النهضة بمعناه العام الذي يمتدّ بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر، فهو يُعتبر حلقة وسطى ،حيث بداية أفول العصور الوسطى التي سادت فيها فلسفة المدرسيين المتأثرة بـ"أفلاطون" [427- 347 ق.م.] و"أرسطو" [384-322 ق.م.] تحت سلطة الكنيسة ويزوغ فجر العصر الحديث؛ وقد مرّ هذا العصر بمرحلتين هامتين في أوربا تمثلان تطورها الفكري(3)؛ أمّا المرحلة الأولى فتُعرف بالمرحلة المتقدمة لعصر النهضة، وكانت نفضة أدبية إنسانية **Humanistic**. أمّا المرحلة

الثانية فتعرف بالمرحلة المتأخرة، وهي مرحلة طبيعية **Naturalistic** أو علمية، حيث انصبَّ إهتمامها على العلم وعلى تفسير الطبيعة، وقد سادت في القرن السادس عشر. أما "قيمة النهضة الأدبية والإنسانية لم تكن بعظمة الحركة العلمية فيما يتعلق على الأقل بالآثار الإيجابية الواضحة"⁽⁴⁾، وبرز اتجاه جديد في البحث والتفكير في المرحلة الثانية من هذا العصر، فكان من نتائجه "الثورة الكوبرنيكية" التي قلبت مركز عالم الإنسان، واكتشاف أمريكا كنتيجة للدراسة العلمية للأرض وللتطبيقات العلمية للملاحة، وأوحى اكتشاف المغناطيس بكثير من الإمكانات في العلم الفيزيائي، كما أدت الظروف التاريخية إلى شيوع اكتشاف "و. هارفي"⁽⁵⁾ W Harvey [1578-1657] - للدورة الدموية في الأوساط العلمية وإلى تقدم الفيزيولوجيا وفن التمرير. والانطباع الأساسي لكل هذا التطور وهذه المعرفة الجديدة على الحياة الإنسانية لم يكن أكثر من كونه ثورة في شروط الحياة⁽⁶⁾. أما من الناحية الفلسفية، فإذا كان عصر النهضة المتقدم حسب "برتراند رسل" Russell. Bertrand [1872-1970]، هو مجرد إعادة كشف للمناخ لا مجرد تأمل فلسفي واسع النطاق بمعناه الدقيق، ومرحلة قراءة للتراث اليوناني القديم خاصة الأفلاطوني منه، فإنَّ الفترة المتأخرة من عصر النهضة يمكن اعتبارها مرحلة تعبير عن محاولة الانفصال عن الفلسفة المدرسية من جهة ومرحلة التأسيس للفلسفة الحديثة من جهة أخرى. وبالتالي ننظر إلى الفلسفة الحديثة على أنَّها نشأت من خلال تغيير مركز البحث والاهتمام المعرفي من الله عزوجل وكل ما هو متعال على الطبيعة، والاهتمام بالحياة الدنيوية، كما كان الإشتغال في ذلك العصر أيضاً بتمييز العلم عن اللاهوت، أما من جانب الفلسفة فلم تهتمَّ بسؤال تمييزها عن العلوم⁽⁷⁾. وحتى تُبقي التمييز قائماً فإنَّها حاولت أن تقطع الصلة بكل ما يمتُّ إلى العصور الوسطى. فمؤسس الفلسفة الحديثة، "فرنسيس بيكون" Francis, Bacon [1561-1626] و"ديكارت" René Descartes [1596-1650] -، لم يكونا منتميين إلى الهيكل الكنسي. ويمكن التأكيد أنه في العصر الحديث وخارج نطاق الجامعات تكوَّنت الأوساط الفكرية الجديدة في مؤسسات جديدة. ففي القرن السابع عشر نشأت ما يعرف بالأكاديميات التي بدأت في إيطاليا مع نهاية القرن السادس عشر، وانتشرت في أوروبا في القرن السابع عشر، ويمكن الإشارة إلى أنَّ هناك ثلاثة من هذه المؤسسات اكتسبت شهرة في أوروبا وكانت مفيدة لثقافة التفكير الحر وهي: أولاً/الجمعية الملكية في بريطانيا ومقرها لندن، والتي خطط لها "فرنسيس بيكون" أولاً في أكسفورد سنة 1645، وقد كان "لوك" و"نيوتن" Isaac, Newton [1642-1727] من أعضائها المؤسسين. ثانياً/أكاديمية العلوم في فرنسا مقرها باريس. ثالثاً/أكاديمية برلين في ألمانيا التي خطط لها "ليبنتر" وأسسها بنفسه، وقد كان أول رئيس لها، وحرَّر أول جزء من محضر جلساتها.

وحسب الفيلسوف الفرنسي "فيكتوركوزان" Victor Cousin [1792-1867] - في الفلسفة الحديثة: العصر الأول يبدأ بالقرن السابع عشر ويمتد حتى منتصف القرن الثامن عشر، أما العصر الثاني فيعاقق المنتصف الثاني للقرن الثامن عشر؛ وعلى الرغم من التطور الحاصل بينهما إلا أن هناك انسجاماً بينهما، إذ يشتركان في الروح العامة التي تميزت بها الفلسفة الحديثة؛ أما المرحلة الأولى فنجد مفكرين افتتحا هذه المرحلة، وأنشأ هذه الفلسفة وهما "رينيه ديكارت" و"فرنسيس بيكون"⁽⁸⁾. وهذا التقسيم ربما يساعدنا على فهم تشكُّل الاتجاهات الرئيسية في الفلسفة الحديثة على وجه العموم، ويساعدنا على مناقشة الفلسفة القارية والفلسفة الأنجلوسكسونية التي منها الإنجليزية والأمريكية.

أما فيما يخصُّ المدرسة الفلسفية الأنجلوسكسونية (الحسية التجريبية) فقد إرتبطت ببلد معين هو إنجلترا لظروف تاريخية معينة، ولذلك وصفت بالفلسفة الإنجليزية، وبهذا يكون الربط بين ما هو تجريبي وما هو إنجليزي أمراً لا مناص منه، خاصة إذا أدركنا أنَّ ما يغلب على هذا الاتجاه هو نزعة التجريبية في المعرفة، واتماؤه الغالب إلى الجزر البريطانية. على الرغم من أنَّ هناك اتجاهات فرعية داخل الفلسفة الإنجليزية ليست تجريبية تماماً مثل "أفلاطونية كامبردج" "Cambridge Platonism" التي تمثل ردَّ فعل لحسية ومادية "توماس هوبز" Hobbes. Thomas, [1588-1679]، والحركة المثالية العقلية في إنجلترا في القرن السابع عشر التي يمثلها كل من: اللورد "هاربارت تشاربري" Herbert of Cherbury " و"ريتشارد كاميرلاند" Richard Cumberland [1631-1718] والنزعة الحدسية. الخ. وعلى الرغم من ذلك كلُّه ناقش الموضوع على أساس أنَّ التجريبية هي أحد خصائص الفلسفة الإنجليزية في عمومها، ومن هنا نتساءل هل يكفي الحديث عن الفلسفة الحديثة ليصلح ذلك على الفلسفة الأنجلوسكسونية وبالذات الفلسفة الإنجليزية والأمريكية لكون هذه الأخيرة جزءاً من الفلسفة الحديثة؟ بالطبع، الإجابة بالنفي. لأنَّ لها عوامل نشأتها وإشكالياتها الخاصة بها، ولها خصائصها العامة التي تميزها عن غيرها من

الاتجاهات التي تنتمي إلى العصر الحديث. أما فيما يتعلق بمشكلة النشأة فإنها تطرح بحدة في الفلسفة الأنجلوسكسونية وفي الفلسفة الإنجليزية والأمريكية بين الدارسين الإنجليز والأمريكين أنفسهم، حيث تعددت الرؤى بين من يرجعها إلى لحظة قطع الصلة بالفلسفة السكولائية، ومن يرجع نشأتها إلى جذور العصر الوسيط، ورأي ثالث يربطها بالفلسفة القديمة أو ماتعرف بفلسفة الأصول. فهل يمكن تأسيس وجهات النظر هذه في نشأة الفلسفة الأنجلوسكسونية (الفلسفة الإنجليزية والأمريكية خاصة)؟ نحاول في هذا المدخل أن نناقش وجهتي نظر أسستنا لنشأة الفلسفة الأنجلوسكسونية أي الفلسفة الأمريكية والإنجليزية؛ رأي يرجع تأسيس الفلسفة الحديثة في عمومها و الفلسفة الأنجلوسكسونية على وجه الخصوص إلى قطع الصلة بفلسفة وتراث العصور الوسطى، ويتم ربطها إما بـ"فرنسيس بيكون" أو بـ"توماس هوبز" أو بصورة مباشرة بـ"جون لوك"، ورأي ثان يرجع جذورها إلى الفلسفة السكولائية أو المدرسية وحتى إلى الفلسفة اليونانية، وهذا الاختيار المنهجي يجعلنا نناقش الفلاسفة الأنجلوسكسون ومنهم الفلاسفة الإنجليز الذين ظهروا قبل القرن السابع عشر (ق17).

وقد ينظر إلى الفلسفة الأنجلوسكسونية الحديثة والفلسفة القارية الحديثة عموماً، على أنّها ثورة على سلطة الماضي، وقطع لكل صلة بتراثه. وما يصدق على الكل يصدق على الجزء وما عبّر عنه "فيكتور كوزان" عن الفلسفة الحديثة ينطبق على الفلسفة الأنجلوسكسونية بالذات، بنظر مؤرخ الفلسفة الإنجليزي البروفسور "سورلي Sorley" [1935.1855] في عمله الموسوم بـ"تاريخ الفلسفة الإنجليزية" مع بعض التحفظات البسيطة التي يديها في آخر كتابه، إذ لا ينبغي أن يكون التفكير الإنجليزي قد وجد جذوره في القراءات الأقدم للسكولائيين⁽⁹⁾، لكن البداية الحقيقية للفلسفة الإنجليزية والفلسفة الأنجلوسكسونية هي التي يؤرخ لها بقطع الصلة بالفلسفة المدرسية السكولائية، ويربط هذه البداية بـ"فرنسيس بيكون"، ذلك لأنّ الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى لم تكن متميزة أو مستقلة عن الدين. وعلى حدّ تعبير "هيجل Hegel" [1831-1770]: «ليست الفلسفة في العصر المدرسي إلاّ لاهوتاً، ولا اللاهوت إلاّ فلسفة، والفيلسوف المدرسي هو من يبحث في اللاهوت بحثاً علمياً منظماً»⁽¹⁰⁾ و كان لـ"فرنسيس بيكون" - حسب "سورلي" - سبق في استعمال اللغة الإنجليزية كعربة لفلسفته، إذ يمكن أن يقال عن اللغة الإنجليزية أنّها لأول مرة أصبحت محرّكة للأدب الإنجليزي الفلسفي مع نشر "فرنسيس بيكون" كتابه "تقدم المعرفة" **Advancement of Learning** سنة 1605، على الرغم من أن "بيكون" فضّل اللسان اللاتيني، لسان النخبة المفكرة وقتها، كمحرك لفلسفته، إلاّ أن عمله هذا باللغة الوطنية قد جعله رائداً لهذه الحركة، أي الحركة الفلسفية الإنجليزية والفلسفة الأنجلوسكسونية عامة. وعلى هذا الأساس يمكن أن نعتبره «ليس فقط المنشئ للفلسفة الإنجليزية، بل أيضاً الممثل للميزات الخاصة للعقيدة الفلسفية الإنجليزية»⁽¹¹⁾. أما أسلاف "بيكون" من أصل بريطاني سواء في الفلسفة أو في العلم فقد استخدموا اللغة المشتركة للقراء، أي اللاتينية، فلم يتميّزوا كفلاسفة إنجليز أو فلاسفة أنجلوسكسون.

كخلاصة للمناقشات المتعلقة بالنشأة نعتقد أنّ الفلسفة الأنجلوسكسونية (الأمريكية والإنجليزية) والتي كتبت باللغة الإنجليزية (في شقها التجريبي)، لم تنشأ فجأة في العصر الحديث؛ ولا يمكن أن نربطها بشخص معيّن وبتاريخ صدور كتاب معين، دون أن ننسى التأثير الديكارتي على تطور هذا الاتجاه، فـ"بوتراندي رسل" يرى أنّ ما يطلق عليه بوجه عام اسم التجريبية الإنجليزية إلى جانب إحياء التراث العقلي الذي كان من أكبر دعواته في القرن السابع عشر "باروخ سبينوزا" و"ليبنيتز Leibnitz" [1716-1646] هو ما أدّت إليه أعمال "ديكارت" الفلسفية⁽¹²⁾، مثل التأمّلات والمبادئ وغيرها، ويقرّ بها فلاسفة إنجليز وأمريكيين أنفسهم. الحركة التجريبية في الحقيقة تمثل خطأً متميزاً، يمتدّ من "بيكون"، و"هوبز"، إلى "جونلوك"، "جورج باركلي"، و"دافيد هيوم"، حتى "جرمي بنتام" [1832-1748]، و"جون ستيوارت مل" [1872-1806]، و"هربرت سبنسر" [1903-1820] Herbert, Spencer. ويمكننا أن نتميّز جملة من الاصطلاحات لهذا الاتجاه⁽¹³⁾، إذ يمكن أن نطلق اسم المذهب التجريبي أو الوضعي لإتجاهه الفلسفي الرئيسي العام، واسم المذهب الحسي أو الظاهري فيما يتعلق بنظريته في المعرفة، ومذهب التداخي للدلالة على إتجاهه في علم النفس، ومذهب اللذة والمنفعة أو السعادة للتعبير عن إتجاهه الأخلاقي، ومذهب الشك أو اللادرية للدلالة على موقفه الميتافيزيقي، ومذهب الإلهية الطبيعية والإلحادية في الدين، ومذهب الليبرالية في السياسة. وكلّها مسميات لهذا التيار الفلسفي.

ان الفلسفة الأنجلوسكسونية - (الفلسفة التي كتبت باللغة الإنجليزية خاصة) -، هي عنوان نزعة فلسفية عامة ومتميزة في الغرب تجمعها خصائص مشتركة، وتشتهر بأقطابها الممثلين لها سواء فكّرنا في "روجر بيكون" و"وليام أوكام" في العصر الوسيط، أو "فرنسيس بيكون"

و"توماس هوبز" و"أفلاطونية كمبردج" في القرن السابع عشر، أو "لوك" و"باركلي" و "هيوم" في القرن الثامن عشر، أو حتى في "كولريدج" [Samual, Coleridge] [1834-1772] و"جيمس فيريير" [James.F, Ferrier] [1864-1808] في القرن التاسع عشر، فإننا ندرك بعض الروح المشتركة في تفكيرهم، لكن لا يمنع ذلك من وجود اختلافات تصل إلى حدّ التناقض بين أقطابها؛ هذا التناقض الذي يفسره بعضهم بأنه يوحي بقوة وحيوية العقل الإنجليزي والأمريكي (العقل الأنجلوسكسوني) من جهة، ويوحي رماً للبعث باستقلالته من جهة أخرى، مما يطرح صعوبة تحديد هذه الخصائص؛ وعلى الرغم من ذلك فإنّ ممثلي هذا الاتجاه رغم الفروق بينهم في الخصائص الفردية والأهداف إلا أنّهم تجمعهم رؤية ذهنية عامة ومشتركة، ويمكن مقارنة ذلك بالأنظمة الفكرية المختلفة للتفكير الألماني فعلى النقيض من ذلك، بحيث أنّه رغم ما يبدو من اتساق واضح إلا أنّ هناك مسافة هائلة بين دوغمائية "لينتزر" والروح النقدية عند "كانط". وبين "كانط" و"هيغل" وهكذا⁽¹⁴⁾. ونحاول جمع بعض العناصر العامة المشتركة التي تكوّن روح العقل الأنجلوسكسوني (الإنجليزي والأمريكي)، ولكن قبل هذا يجب أن نتعرف على معنى مصطلح الفلسفة الأنجلوسكسونية. فما المقصود به لغويا ومن الناحية الإصطلاحية؟

الدلالة اللغوية و الإصطلاحية:

أولاً/ في الدلالة اللغوية : مصطلح أنجلوسكسونية مأخوذ من كلمة أنجلوسكسون (بالإنجليزية) Anglo-Saxons : وهم القبائل الجرمانية التي غزت بريطانيا في القرن الخامس الميلادي (ق 5م) والقرن السادس الميلادي (ق 6م)، تلك القبائل هي أنجل (Angles) ، وسكسون (Saxons)، وجوت (Jutes) تركوا أوطانهم الأصلية وهي شمال ألمانيا وهولندا والدانمارك، واتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية، واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية في القرن الخامس بعد الميلاد، وبعد حوالي مائتي عام انضمت هذه المجموعات الثلاثة في مجموعة واحدة سميت بالأنجلوسكسون، وقد استخدم هذا المصطلح أنجلوسكسون (Anglo-Saxons) كتاب غاليليو للتفريق بين الغزاة وبين سكان بريطانيا الذين كانوا فيها قبل مجيء هؤلاء الغزاة⁽¹⁵⁾.

ثانياً/ أما من ناحية الدلالة الإصطلاحية : الفلسفة الأنجلوسكسونية هي تلك الفلسفة المنتشرة في العالم الناطق باللغة الإنجليزية ، خاصة في أمريكا والمجلترا وهو ما يسمى بالعالم الأنجلوسكسوني ، وهي تتصف عن نظيرتها القارية (الفلسفة الفرنسية والألمانية خاصة) ، بالطابع العلمي إذ أنّها علمية بالأساس⁽¹⁶⁾، سواء من حيث الموضوعات والحقول الفلسفية التي تناولتها بالدراسة أو من حيث المناهج وآليات استخدامها أو من حيث الغايات التي تصبو إليها، أي من حيث الدقة واليقين في أحكامها وتفسيراتها الفلسفية ، ومنها الأحكام الأكسيولوجية. والتحول في جوهر التفلسف من إشكالية المذاهب والأنساق الفلسفية إلى المناهج، ويمكن أن نضطلع على تسميتها فلسفة المناهج وطرائق التفكير العلمي. كما أنّ معظم فلاسفتها يشتغلون بطابع جماعي ، بحيث يشكلون دوائر وحلقات فكرية وعلمية. فهي فلسفة كتبت باللغة الإنجليزية. وبالتالي تعد الفلسفة الأمريكية هي أيضا جزء منها وعلى صلة مباشرة بها. سواء من حيث الموضوعات أو المناهج إن قارناها بالفلسفات الأخرى الفرنسية والألمانية أو التي تسمى فلسفة أوروبا القارية.

هذا التقابل بين الفلسفتين ، يوجد أوجه اختلاف ثقافي بين العالمين يراه البعض فجوة كبيرة وانقساماً بين أوروبا القارية والعالم الأنجلوسكسوني وكل ما يعارضها. وتعد الفلسفة تعبيرا عن هذا التباين أو الاختلاف الثقافي في الحاضر والمستقبل. الفارق هو تعبير عن انقسام ثقافي عميق بين عادات فكر مختلفة ومتعارضة مثل الاختلاف بين التجريبية العلمية والتأويلية الرومانسية. فمن الباحثين من يرى ان الاختلاف بين الفلسفة الأنجلوسكسونية والفلسفة القارية هو اختلاف جغرافي بين مكانين أو عالمين متباينين العالم الناطق باللغة الإنجليزية وعالم أوروبا القارية. وفي هذا قالت البارونة "مارغتر تاتسر" - عند ضغط عليها حيال انشاء اتحاد اوروبي-: "اتت جميع المشاكل التي صادفتها في حياتي من أوروبا القارية، وجاءت كل الحلول من العالم الناطق بالإنجليزية"⁽¹⁷⁾. ومن جهة أخرى هناك من يعتقد أن التمييز بين الفلسفة الأنجلوسكسونية والفلسفة القارية ليس تمييزا جغرافيا بين مكانين مختلفين وعالمين متباينين مثل عالم الأنجلوسكسون (بريطانيا وأمريكا) وعالم أوروبا القارية، بل هو اختلاف داخلي بالنسبة الى ما يمكن تسميته بالعقل الفلسفي الإنجليزي والأمريكي، عبارة أخرى، هو اختلاف يرتبط بثقافة معينة، ثقافة منقسمة داخليا ومذهبية بالكامل.

فالفلسفة القارية مصطلح ابتدعه الفكر الأنجلوسكسوني أو الأنجلوأمريكي، وهي وصف ذاتي أكاديمي وسمية ثقافية ومفهوم حديث وهي إسم لفترة تمتد لمعني 200 سنة في تاريخ الفلسفة، تبدأ بنشر الفلسفة النقدية لايمانويل كانط في ثمانينات القرن الثامن عشر، وحفر ذلك ظهور التيارات والحركات الفلسفية الرئيسية التالية:

أولاً/الفلسفة المثالية الألمانية التي تشمل فيتشة وشيلينج وهيغل وشوبنهاور.....

ثانياً/نقد الميتافيزيقا وسيادة الحركة الفلسفية الشكية وتشمل فيورباخ وماركس ونيتشة وفريد وبرغسون..

ثالثاً/الفلسفة الوجودية والفلسفة الظواهراتية أو الفينومينولوجية الألمانية وتشمل إيدموند هوسرل وماكس شيلر وكارل يسبرس وهيدجر...

رابعاً/الفلسفة الهيكلية الجديدة واللاهيجلية الفرنسية تشمل جون بول سارتر وموريس ميرلوبونتي وليفيناس وسيمون دي بوفوار وباتاي وكوجيف.....

خامساً/الماركسية النقدية ومدرسة فرانكفورت وتشمل لوكاش وهوركهايمر وادرنو وماركوزه ويورغن هابرماس....

سادساً/النيوية الفرنسية وما بعد النيوية وما بعد الحداثة والنسوية وتشمل ليفي شتراوس ولاكان ولوي ألتوسير وميشال فوكو وجاك دريدا وجيل دولوز وليوتار وبودريار وإيريجارد وكريستيفا.....

وخالصة القول فبالرغم أن كليهما له أصول مشتركة وسط أوروبا، وجذور أو أصول تعود إلى الفلسفة القديمة اليونانية.

***الخصائص أو المميزات:** تتميز الفلسفة الأنجلوسكسونية بجملة من الخصائص تتمثل فيما يلي:

أولاً/ الفلسفة الأنجلوسكسونية، فلسفة مكتوبة باللغة الإنجليزية.

ثانياً/البعض يحرصها في الدول الناطقة باللغة الإنجليزية على رأسها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، والبعض الآخر لا يربط الفلسفة الأنجلوسكسونية بالمكان "يورغن هابرماس وباك دريداهيكا فوكوياما.." وإنما يركز على لغة الكتابة. فمثلاً يورغن هابرماس ألماني كتب مؤلفاته باللغة الإنجليزية، وكذلك باك دريدا، يعد من أصل فرنسي كتب مؤلفاته باللغة الإنجليزية، "11 سبتمبر، الدولة المارقة" وهيكا فوكوياما ياباني كتب مؤلفاته باللغة الإنجليزية منها نهاية العالم وكذلك ماركوز كتب مؤلفاته باللغة الإنجليزية.

ثالثاً/الفلسفة الأنجلوسكسونية، فلسفة إجرائية، فمن الناحية الموضوعية يقول كارل أتوآبل "Karl-Otto Apel"⁽¹⁸⁾ [1922/----]: إذا أردت أن تبحث عن الفكرة الخالصة، فعليك بالفلسفة الخالصة، وإذا أردت البحث عن الفكرة الإجرائية فعليك بالفلسفة الإنجليزية. وإذا أردت البحث عنهما معا (الفكرة والفعل) فعليك بالفلسفة الفرنسية"، وبالتالي تعد الفلسفة الأنجلوسكسونية هي فلسفة إجرائية عملية فعلية تنشأ التطبيق.

رابعاً/ الفلسفة الأنجلوسكسونية على مستوى الميكانيزمات والمناهج فهي كذلك مناهج عملية، والدليل على ذلك إرتباط المنهج الإستقرائي التجريبي (Experimental and Inductive Method) بالفلسفة الإنجليزية .

خامساً/الحقيقة في الفلسفة الأنجلوسكسونية كذلك هي حقيقة إجرائية عملية، أي يجب أن تتطابق مع الواقع.

سادساً/ من الناحية الفلسفية، فإن المذهب الذي ساد في هذه المرحلة هو المذهب الأمبريقي أو التجريبي مما يؤكد إرتباطها بالمذهب الأمبريقي "Lemprisme" الذي يشير الى أسبقية الحس على الفكر أو العقل. أو أسبقية التجربة على الفكر أو العقل، أي أسبقية عالم الأشياء على عالم الأفكار. وأن للعقل دور تنظيمي للمعارف فقط، أي أصبح يلعب دوراً منهجياً. لذا هذه الإجرائية والعملية في الفلسفة الأنجلوسكسونية؟

إن الفلسفة الإجرائية العملية مرتبطة بالنظام اللبيريالي الذي بدأ من خلال الثورة الصناعية والتي كانت بريطانيا مركزها. فالإقتصاد اللبيريالي في حاجة الى المهارات والخبرات الأنجلوسكسونية.

إن ما يميز الفكر الفلسفي الأنجلوسكسوني منذ البداية هو الدقة، والصرامة، والمحاكاة المنطقية أو العقلية، والاحتكام للتجربة العملية أو للوقائع المحسوسة باستمرار. ما يميزه هو المذهب التجريبي سابقاً، ثم الاهتمام بمسائل المنطق واللغة لاحقاً ومحاولة تحليلهما تحليلاً دقيقاً (من هنا نتج اسم الفلسفة التحليلية). ولكن الفكر الأنجلو سكسوني لا يقتصر فقط على المشاكل الإبتيمولوجية وفلسفة اللغة والمنطق، وإنما يشتمل أيضاً على الفكر الأخلاقي والسياسي. ولا يمكن لأي باحث أو دارس للفلسفة اليوم أن يتجاهل المكتسبات التي قدمتها الفلسفة

الانجليزية والأمريكية في مجال الأخلاق والسياسة، لكن يبقى صحيحاً القول بأن العالم الأنجلو سكسوني هو الذي بلور بشكل عميق جداً فلسفة العلم، وفلسفة اللغة، وفلسفة المنطق، وفلسفة الممارسة العملية. ولهذا السبب أيضاً دعيت فلسفتهم بالفلسفة التحليلية لأنها تهتم بتحليل شيء واحد فقط بدلاً من أن تحلل كل الأشياء دفعة واحدة. ولهذا السبب لا نجد مفكراً شمولياً لديهم مثل " هيغل": أي مفكراً يقدم نظاماً فلسفياً متكاملًا يتحدث عن كل شيء، أو يشرح كل شيء. ولكن هذا التواضع الذي يميز الفلسفة الأنجلو سكسونية هو الذي يقدم لها ميزة الدقة والصرامة العلمية، فما تخسره من جهة ترحمه من الجهة الأخرى. وبالتالي ما نفهمه من هذا التعريف هو ان " الفلسفات الانجلوسكسونية " لا تحب الشطحات الفلسفية أو الانظمة الشمولية، وفي المقابل تفضل الفلسفة المتواضعة التي تدرس مجالاً واحداً بشكل عميق.

وقلنا بأن ما يميزها هو التيار التجريبي سابقاً، فإنه وبناء على هذا الأساس يمكننا ان نقول بأن التجريبية تمثل احد محطاتها وخاصة مع الثلاثي "جون لوك" و"جورج باركلي" و" هيوم" لكن سبقهم في ذلك كل من " فرنسيس بيكون " و"توماس هوبز"، كما يمكن مقارنة تلك الخصائص الملازمة لروح الفلسفة الأنجلوسكسونية في مرحلتها الكلاسيكية بما يميّز الفلسفة العقلية المثالية أو ما تعرف بالفلسفة القارية التي تعود في أساسها الى "ديكارت"، ويمكننا رصد هذه الخصائص، التي تحدّد معالم الفلسفة الأنجلوسكسونية من ثلاثة مستويات: من حيث المنهج المستخدم، ومن حيث الغاية من المعرفة، ومن حيث طبيعة دراستهم الفلسفية.

- أولاً: أما من حيث منهج المعرفة: فقد اعتمد الفلاسفة الأنجلوسكسون - (الأمريكيين منهم والإنجليز والذين كتبوا مؤلفاتهم باللغة الإنجليزية) - في غالبيتهم على المنهج التجريبي والاستقرائي (Experiential and Inductive Method): وهو منهج متميّز عن المنهج الاستنباطي العقلي (Rational Deductive Method) الذي تأخذ به الفلسفة القارية، فلكي ندرک ونعرف الطبيعة يجب علينا ملاحظة وقائعها، هذا هو المبدأ العام، التجربة هنا هي الموجّه الوحيد وسر الاكتشاف الحديث والاختراع موجود في الموقف الجديد للإنسان نحو الطبيعة، موقف تغير في المنهج من المنهج الاستنباط المتمثل في كونه مجرد حجج وتصورات تسقط على الطبيعة إلى منهج الاستقراء القائم على الملاحظة والتجربة الذي يستنتج الطبيعة. ولم يكن الفلاسفة الإنجليز هم أول من بحثوا مفهوم التجربة الحسية فقد بحثها الرواقيون عندما اعتبروها معياراً للمعرفة، وصوّروا النفس(العقل) خالية قبل ذلك، وهي شبيهة بورقة بيضاء⁽¹⁹⁾.

أما الأبيقورية فكانت لها نزعة حسية في المعرفة أكثر من الرواقية، فجعلوا كل معرفة أخرى غير المعرفة الحسية وهماً وبطلاناً، وجعلوا المقياس والمصدر في المعرفة الصحيحة هو الإحساس، ينقل "عبد الرحمن بدوي" [1917-2002] نصاً لـ"أبيقور" Epicurus [341-270 ق.م] يبيّن فيه قيمة مكانة الحس فيقول: « إنّ الأصل في كلّ معرفة هو الحس، فعن طريقه وحده تتم المعرفة والحس لا يخطئ»⁽²⁰⁾.

لم يرض الفلاسفة الأنجلوسكسون، مثل "ديكارت"، بمنهج القياس الأرسطي التأملي الذي اعتمدت عليه الفلسفة السكولائية... فالنظام المنطقي الحالي(الأرسطي)، يقول "بيكون"، يساعد على تثبيت وتوطيد الأخطاء أكثر ممّا يساعد على إزالتها، ولذلك كان خطره أكثر من نفعه»⁽²¹⁾. ويعدّ "ديكارت" مؤسساً للحركة العقلية الكبيرة التي تمتد إلى "باروخ سبينوزا" (Baruch Spinoza) [1632-1677] و"ليبنز" وحتى إلى "كانط" وإلى "هيغل". وقد اعتمد على الأفكار الواضحة والمتميزة كمنهج للتفكير الفلسفي، أما "فرنسيس بيكون" فهو مؤسس الحركة التجريبية الاستقرائية الإنجليزية التي تمتد إلى "لوك" وباركلي و"هيوم" و"جون ستيوارت ميل" و"سبنسر" الخ. وفي الواقع، لم ينشئ "بيكون" نظاماً فلسفياً بمعنى الكلمة، بل أسس ببساطة منهجاً، وإذا كان كتاب "الأخلاق" لـ باروخ سبينوزا يعتبر من أفضل ما يمثل استخدام المنهج الاستنباطي الرياضي بسبب تطبيق المنهج الهندسي الرياضي على القضايا الأخلاقية، فإن الأعمال التي تمثل إدخال المنهج التجريبي في العلوم الأخلاقية - حسب عرف الفلاسفة الإنجليز في العصر الحديث - نجدها في عمل "جون لوك" الهام "الفهم البشري"، إذ يصف "لوك" المنهج الذي وظّفه في المقالة بأنّه منهج تاريخي بسيط. والمنهج التاريخي المقصود به هنا عند "لوك" - حسب المفكر "ألكسندر" Alexander - ليس سحلاً أولياً بسيطاً لأصل وتطور أفكارنا، ولكن بالأحرى يملك المعنى ذاته الذي استخدمه "بيكون" و"أرسطو" قبله. تاريخ عقولنا يعني وصف محتويات أذهاننا كما نجدها مرتبة.. ومحدّدة وفق قدراتها المناسبة⁽²²⁾.

وأيضاً عمل "هيوم" المعروف بـ"رسالة في الطبيعة البشرية"، حيث العنوان الفرعي للكتاب يعبر بوضوح عن هذا المنحى فهو يعتبره بمثابة "محاولة لتقديم المنهج التجريبي للاستدلال في الموضوعات الأخلاقية". وبهذا يريد "هيوم" أن يستعير منهج العلوم الطبيعية، أي المنهج التجريبي

الاستقرائي، لتطبيقه على العلوم الأخلاقية، أو بالأحرى يقصد "هيوم" توسيع مناهج العلم النيوتوني إلى أبعد حد يمكن أي الطبيعة البشرية ذاتها، ويذهب بذلك بعيداً بالعمل الذي بدأه "لوك" و"هاتشنستون" (Hutchinson) و"باتلر" (Butler)*⁽²³⁾. "باركلي" هو الآخر يتفق تماماً مع النزعة الأنجلوسكسونية الإنجليزية والأمريكية في تأسيس فلسفته بصورة مباشرة على التجربة، وفي اهتمامه بالأسئلة السيكولوجية والإبستمولوجية مثل العلاقة بين العقل وعالم الطبيعة.

أما الفلسفة الحقيقية عند باركلي فهي الفلسفة التجريبية، باركلي يطريها كثيراً ويزكيها⁽²⁴⁾، ولذلك ينبغي أن تبني على ملاحظتنا الخاصة لتجارنا الخاصة؛ وإذا كان مطمح العقليين هو تحقيق الاتساق أو الانسجام التام، ورؤية كل الأشياء في وحدتها الكاملة والنهاية، أو في الله، فإنّ المثل الأعلى للحركة التجريبية هو الوصول إلى الحقيقة، وذلك بفحص كل نتائجها بالرجوع إلى وقائع التجربة. «إنّنا دائماً تضحية بالانتظام والاتساق لأجل الالتزام بمعطيات التجربة، والتضحية بالكمال التأملي لأجل التصحيح العلمي والحقيقة التجريبية...»⁽²⁵⁾. "بيكون" ضيق مجال البحث واقتصر على بعض مشكلات الفلسفة التجريبية، أما بالنسبة لـ"لوك" و"باركلي" و"هيوم" فلم يكتفوا بالتجربة الخارجية أو ما تعرف بالإحساس، بل أضافوا وفي الوقت ذاته وسّعوا من مجال البحث إلى الظواهر النفسية عن طريق ما يعرف بالتأمل أو منهج الاستبطان... نستطيع القول إذن، فيما يقول "لوك"، أنّ الأشياء الخارجية المادية التي تؤثر في الحواس، وعمليات عقولنا الداخلية التي هي موضوع التأمل هما في رأي المصدران الوحيدان حيث تنشأ كل الأفكار الموجودة لدينا»⁽²⁶⁾. وأضحى بذلك كل من المنهج التجريبي الخارجي والسيكولوجي الاستبطاني الداخلي ملائمين للتطبيق على جميع الأسئلة المتعلقة بالحقيقة أو بالواقع. ويمتد هذا المنهج حتى فلاسفة التداعي الحر والحدسيين الاسكتلنديين كميزة تخصّ الفلسفة الأنجلوسكسونية الإنجليزية والأمريكية.

ثانياً: أما من حيث الغاية من المعرفة: فالتركيز والاهتمام بالجانب الأخلاقي العملي هو الذي يوجه الفلاسفة الأنجلوسكسون بدل الاهتمام النظري الميتافيزيقي الذي ميّز الفلسفة القارية⁽²⁷⁾. من الأهمية بمكان ملاحظة المعنى الدقيق فيما يمكن أن يقال عن الفلسفة الأنجلوسكسونية من أنّها موجهة باهتمام عملي أخلاقي، عكس الاهتمام التأملي الميتافيزيقي الذي تعلي من شأنه ما يعرف بالفلسفات العقلية المثالية القديمة منها والحديثة على وجه الخصوص، فليس صحيحاً القول أن تقدير الإنجليز للمعرفة هو تقدير نفعي برغماتي خالص على الرغم مما توحى به بعض الأفكار المشهورة للفلاسفة الإنجليز، كقول "فرنسيس بيكون" المشهور: "المعرفة قوة" أو "المعرفة سطوة" (Knowledge is power) وعليه فغايتها "تحسين وضعية الإنسان" (Improvement of man's estate)، وأيضاً قوله: «المعرفة والقوة الإنسانية مترادفتان»⁽²⁸⁾. حقيقة إنّ هذه الآراء توحى بمثل هذا الاعتبار، لكنّها بالأحرى تربط الاهتمام العقلي بالأخلاقي، والنظري بالعملي⁽²⁹⁾، ولن تفهم أكثر من ذلك. ويبرز إهتمام الفلاسفة الأنجلوسكسون (الأمريكيين والإنجليز) بالجانب العملي للمعرفة جلياً عند مقارنتهم بفلاسفة اليونان فيما يتعلق بغاية المعرفة عندهم. فلاسفة اليونان رأوا أن الفلسفة هي طريق الحياة، كما قد علوا من شأن الجانب النظري التأملي للمعرفة - عدا فلاسفة العصر الإغريقي الثالث الرواقيون والأبيقوريون الذي اتجهوا نحو المطالب العملية الأخلاقية- كما أنّ الفكرة الموجهة لكل نشاطهم الفكري هي أنّه بدون الفهم النظري، يكون تحقيق الفضيلة غير أكيد وغير واضح، والفضيلة لا تعني عند "سقراط" سوى مطابقة للمعرفة أو الحقيقة النظرية. ويذهب فلاسفة اليونان، ونعني "أفلاطون" و"أرسطوطاليس" بعيداً في ربط غاية المعرفة بالجانب النظري التأملي، فليست الفضيلة المثالية سوى الفضيلة التأملية الفلسفية التي تتناقض والحياة المدنية عند "أفلاطون"، أما بالنسبة لـ"أرسطو" فغاية النشاط العملي والأخلاقي هو أن يكون وسيلة أو أداة لحياة أرقى للنشاط التأملي والنظري⁽³⁰⁾. وعلى النقيض من هذا فإنّ العقل الأنجلوسكسوني (الأمريكي و الإنجليز) هو عقل عملي، بمعنى أنّه عقل موجّه للفعل "Action" وليس للتأمل من أجل التأمل، ولا يعني أيضاً أن نضع الفعل فوق التفكير فقط، بل أن نوجه كل تأملاتنا للحياة العملية.

ونلاحظ الاهتمام العملي من المطالب الأولى لهذا الاتجاه، حيث أن "روجر بيكون" مفكر القرن الثالث عشر يصنف القيمة العملية فوق القيمة النظرية للمعرفة، «وهو ينتمي إلى نظام من المفكرين الذين يعودون إلى "فيثاغورث" أكثر منه إلى "أرسطو" الذي انشغل بالتأمل؛ وليس ذلك لأجل التأمل البحث لوحده، بل لنتائج عملية أخلاقية واجتماعية تتبع ذلك»⁽³¹⁾. لكن على الرغم من هذه النزعة عند "روجر بيكون" والتي سادت التفكير الإنجليز ككل، إلا أنّه لا يذهب إلى حدّ المغالاة والتطرف في التطبيق، بل على العكس من ذلك يحاول أن يجد توازناً بين الجانب النظري والجانب التطبيقي، فهو يلح على أنّ: «النظرية هي عديمة الفائدة بدون تطبيق، والتطبيق أعمى بدون

نظرية»⁽³²⁾ والمهم أنه لا وجود لتأمل خالص بدون أن يرتبط به فعل. هذا الجانب العملي نلاحظه أيضاً بقوة مع "فرنسيس بيكون"، الذي يعتبر الفلسفة الحقيقية هي علم الطبيعة الذي يعلم الإنسان كيف يكون سيداً على الطبيعة وأن يجربها على أن تحقق له غاياته، وأن سرّ السيادة يكمن في خضوع الطبيعة الذي هو في حدّ ذاته نتيجة للمعرفة، والإنسان يجب أن يكون خادماً للطبيعة إذا أراد أن يكون سيّدها. والطبيعة لا تسيطر عليها إلا بالمعرفة. «المعرفة البشرية والقوة البشرية يلتقيان في مفهوم واحد»⁽³³⁾. وربما نحصل على فهم أفضل لرؤية "بيكون" للمعرفة بمقابلتها برؤية "أرسطو". في المقام الأول، وبالنظر إلى غاية المعرفة، أو علاقة النظرية بالتطبيق، يظهر "بيكون" معارضاً تماماً لمذهب "أرسطو"؛ بالنسبة لهذا الأخير التقصّي النظري لم يكن وسيلة أو أداة لتحقيق غايات عملية، بل هو الغاية الأسمى في ذاتها للحياة الإنسانية، والخير الأسمى يكمن في التأمل والتفكير في الحقيقة. أمّا بالنسبة لـ"بيكون" فالغاية من المعرفة هي "إسعاف وضعية الإنسان"، وقيمتها تكمن في سيادة الإنسان على الطبيعة، والعلم يبرز على أساس تطبيقاته العملية وكذا الثمار التي يمكن أن تُجنى منه⁽³⁴⁾.

وعلى هذا الأساس يوجه نقده لـ"أرسطو" واليونانيين عامة في كونهم يشتركون مع الأطفال في الميل إلى الكلام، والعجز عن الإنجاب المثمر، بحيث كانت حكمتهم لفظية لا تتم أية نتائج. كما يوجه نقده للمدرسين لأن هذا النوع المنحط من المعرفة (أي المعرفة النظرية التأملية) قد ساد أساساً فلسفة المدرسين، ويصف إنتاجهم بما ينسجه العنكبوت الذي تعجبنا فيه دقة الخيوط وحكمة النسج، ولكن ليس لها قوام ولا منها جدوى⁽³⁵⁾. "هوبز" هو الآخر لا يستثنى من هذا الاتجاه، فهو يتفق تماماً مع "بيكون" في القيمة العملية للمعرفة، فالغاية من المعرفة هو تحقيق القوة، كما أنّ غاية كل تأمل نظري هو تنفيذ فعل ما، أو إنجاز شيء ما⁽³⁶⁾. هذا الاهتمام العملي والنفعي في المعرفة هو الباعث المحرك لمشروع "هوبز" ككل في الفلسفة. وبينما تقاس منفعة الفلسفة الطبيعية والهندسة عنده بما يمكن الحصول عليه من مهارات وفوائد تأتي الإنسان من جزاء تملكها، فإنّ "منفعة الفلسفة الأخلاقية والسياسية ألا تُقدّر بسلع وبضائع مادية نحصل عليها من هذه العلوم، بل من خلال الكوارث والفواجع التي تحلّ بنا من عدم معرفتنا وإدراكنا لها؛ وأكبر الفواجع، أو بالأحرى سبب كل فاجعة هي الحرب التي يمكننا تفاديها. وسبب الحرب ليس حماقة الإنسان.. بل تهور عقلي وجهل بقواعد الحياة المدنية»⁽³⁷⁾.

وفي نفس الاتجاه نجد أنّ المقصد الرئيسي والحافز العام عند "لوك" ارتبط بالجانب العملي، وليس الانغماس في الفضول التأملية الميتافيزيقي، و"المقالة" في الأخير، ووفقاً لهذا، هدفها الرئيسي عملي نفعي، يبحث لاكتشاف حدود ومجال المعرفة البشرية، وحتى تنظيم حياتنا يجب أن يتم وفق القدرات الممنوحة لنا بدون أن نضيع الوقت في البحث عن معرفة الأشياء التي تفوق قدراتنا، وفي هذا الصدد يقول "لوك": «إنه بإمكان البالغ أن يعجب بقراءة التأملات في العلم الطبيعي. لكنه لن يتوقع أن يحصل على الحقيقة»⁽³⁸⁾. ومرد هذا الرأي عنده في عدم رضاه على المنهج التأملية العقلية كان واضحاً وهو المنهج العملي الذي ورثه عن أسلافه. ويذكر "لوك" أنّ نوع البحث الذي أجراه في عمله "المقالة" يهدف إلى تحقيق المتعة والنفعة؛ أمّا المتعة فتعود إلى أنّه يساعد على الاهتمام إلى المعرفة، لأنّ الاهتمام إلى المعرفة ممتع في حدّ ذاته "لما كان الفهم أسمى ملكة في النفس، فإنّه يحقق بحجة عند استعماله. «أما النفع المترتب عن البحث فيُؤدّ إلى حدّ كبير إلى الخلاص ممّا يعتبره حواطر تافهة فارغة في المسائل الخارجة عن نطاق إدراكنا»⁽³⁹⁾. باركلي أتبع خطى "بيكون" في أنّ المعرفة ليست غاية في حدّ ذاتها؛ كما لا ننسى، فيما يقول "جونستون" "Johnston"، أنّ جميع كتابات "باركلي" كان يوجهها هدف عملي مزدوج:

أولاً/ المبدأ الجديد سيقترن على جهد الدراسة في المقام الأول، ويجعل بذلك العلوم الطبيعية والرياضيات أكثر نفعاً. ثانياً/ أنّ حضور الله وقربه الواضح سيؤدّي إلى تأثير أعمق نحو الأحسن في العالم⁽⁴⁰⁾، ليخلص إلى أنّ «الكل موجه للعمل» كما يقول باركلي⁽⁴¹⁾. وهناك ميزات تخصّ الفلسفة في إنجلترا أكثر من أيّ بلد آخر وهي أنّ الممثلين الأساسيين لها ("بيكون" و"هوبز" و"لوك" و"باركلي" و"هيوم") لم يكونوا علماء أكاديميين بل رجال أعمال⁽⁴²⁾.

ثالثاً: أمّا من حيث طبيعة البحث أو الدراسة: نجد طابعها ابستمولوجياً وليس انطولوجياً ويعد ذلك من سمات الاتجاه الأنجلوسكسوني التجريبي ويظهر جلياً مع الفيلسوف الإنجليزي "لوك" خلافاً للطبيعة الأنطولوجية للفلسفة القارية. لم يكن الدافع الرئيسي من تأليف "لوك" لكتابه "الفهم البشري" الرغبة من الأول في بناء نسق فلسفي ميتافيزيقي يحيط بكل شيء، ويتناول جميع القضايا، ابتداءً من قضية الله إلى قضية الإنسان إلى العالم بطريقة منهجية كما فعل قبله "ديكارت"، بل كانت اهتماماته بالدرجة الأولى ابستمولوجية معرفية. يقول "لوك": «إنّ هدفي هو البحث في أصل وحدود المعرفة البشرية ويقينها، مع بيان أسس درجات الاعتقاد والظن والمواقفة»⁽⁴³⁾. ويندرج هذا العمل، كما

هو معروف، ضمن ما يعرف بمبحث المعرفة أو (الايستيمولوجيا). وقد رأى "لوك" في الرسالة التي قدّمها للقارئ "Epistle to the Reader" قبل "المقالة: «أنه قبل الشروع في أية أبحاث ذات طبيعة ميتافيزيقية، من الضروري أن نفحص قدراتنا ونطمئن إليها...»، وترك "لوك" عدة مقالات تهيئ للأفكار التي وردت في "المقالة" منها مقال كتبه في سنة 1677 عندما كان بـ "منبوي" بفرنسا ضمنها حدود المعرفة البشرية... فأذهاننا، يعتقد "لوك"، لم تخلق بحجم الحقيقة ولا تتلاءم مع كل حدود الأشياء»، و«...أننا كائنات مجهزة بقوى وقدرات محدودة جداً لبعض الغايات لكنها غير متكافئة مع عدم محدودية واتساع طبيعة الأشياء» (44). وعندما ننظر للمقالة ككل من حيث طبيعة المباحث التي أوردها "لوك"، فإننا نجد أنها ليست في حد ذاتها فلسفة، أو جزءاً من الفلسفة، بل فحصاً للفهم الذي باستطاعته إنشاء البناء الفلسفي، وهو من خلال ذلك يهدف إلى أن يهيئ الأساس للباني أكثر من أن ينشئ البناء، وعليه لا بد من إزالة العقبات كهدف أمام طريق المعرفة (45). وهكذا اكتشف "لوك" أنّ قدرات الإنسان محدودة أكثر مما يظن الفلاسفة، ومن ثمّ اتجه إلى كبح جماح ادعاءات الفلسفة، وبدأ تقليداً في بريطانيا يدعو إلى عدم الوثوق بالميتافيزيقا والتركيز على الاستيمولوجيا، وهذا ما تميزت به الفلسفة الإنجليزية اللاحقة إلى يومنا هذا (46).

هذه الخصائص تظهر بصورة جلية عند الفلاسفة الأنجلوسكسون الأمريكيين والإنجليز الذين يمثلون خطأً متصلًا من الأفكار يمتد من "بيكون" إلى "مل" و"سبنسر"، خاصة في المرحلة الكلاسيكية. وهذا الخط يمثل ويتضمن مجموعة كبيرة من المبادئ المتناسكة والمنسجمة؛ ولما كان هذا الخط التجريبي قد بلغ قمة نموه النظري لدى "لوك" و"باركلي"، و"هيوم" وأرسى دعائمه الأساسية، كما استنفذ إمكانياته التأملية في جميع المجالات الرئيسية، ولم يكن في استطاعة القرن التاسع عشر أن يجرز أي تقدم هام، يغير به إطار المذهب التقليدي على حدّ رأي المفكر الألماني "رودلف ميتز" Rudolf Metz (47)، فإننا نعتبر المذهب الكلاسيكي على هذا الأساس هو قاعدة هذا الاتجاه الفلسفي. وهكذا، ينبغي لنا أنّ نتبع أفكار هؤلاء الفلاسفة ومناقشاتهم المختلفة لمسألة العالم الخارجي، كمشكلة حديثة ضمن أنساقهم الفكرية العامة، ووفق رؤيتهم وتصورهم للحقيقة و في إطار وسائل البحث عن مضامينها، لكن قبل أن نتطرق إلى مناقشاتهم لمشكلة العالم الخارجي بوّدنا أن نضع المشكلة في إطارها العام المنهجي ضمن مشكلات الفلسفة العامة والتاريخي في رؤية الفلاسفة السابقين لها منذ الفلاسفة الطبيعيين الذين اهتموا بأصل العالم الخارجي أو الطبيعة.

إن الفلسفة الأنجلوسكسونية التي ظهرت منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم، لا يمكننا الإحاطة بها علماً إذا لم نستوعب ونغوص في جذور الفلسفة المهيمنة في العالم الأنجلوسكسوني (الذي يشمل إنجلترا وأمريكا) فهذه الفلسفة تختلف بشكل واضح عن الفلسفة الأوروبية أي الألمانية والفرنسية أساساً. فهي مغايرة تماماً عن ما يسمى بالفلسفة القارية، فبالرغم من الإحتكاك والتفاعلات الثقافية المتبادلة بين أوروبا وأمريكا، و السمات المشتركة التي تجمع بينهما داخل ما يسمى بالعالم الغربي الحديث أو العالم الحر (الحضارة الغربية)، فيظل بناء العقل الأنجلوسكسوني مختلف تماماً عن غيره. فالفلسفة في العالم الأنجلوسكسوني أساساً، لاتقبل التأمل النظري والتنظيرات العمومية الكبرى على طريقة "فريدريك هيغل" مثلاً أو "كارل ماركس" أو "اوغست كونت"، أو "مارتن هيدغر"، فهي تبتعد عن التأملات والشطحات الفلسفية وتفر من الأنظمة الفكرية الشمولية التي تفسر كل شيء وتتحدث عن كل شيء وتفضل غالباً الفلسفة المتواضعة التي تبحث فيما هو كائن في الواقع، أي الفلسفة التي تدرس مجالاً محدداً أو ظاهرة واحدة بشكل دقيق وتشبعهما دراسة وبجثا. كما أن فلاسفة العالم الأنجلوسكسوني ومنهم الفلاسفة الإنجليز والأمريكيين، يفضلون التفكير الوضعي الذي لا يتعد كثيراً عن التجربة المحسوسة ومعطيات العلم الطبيعي الفيزيائي. فأكثر شيء ينفرون منه هو التخبط في مناهات التجريد والميتافيزيقا، وإطلاق الأحكام العامة المعقدة والغامضة، ولهذا العلة كانت تدعى فلسفتهم بالفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية أو التجريبية، والبراغماتية... الخ. وقد كان في الفكر العربي المعاصر المفكر المصري الكبير "زكي نجيب محمود" من أتباعها.

وخلاصة القول، إن الفلسفة الأنجلوسكسونية و"الفلسفة الإنجليزية والأمريكية" بالذات، حاولت جعل اللغة ضمن أول اهتمامات الفيلسوف، ومنه فهي النزعة القائلة بأن كل معرفة مستمدة في نهاية الامر من الخبرة، كما تعني استخدام المناهج التي تقوم على التجربة العملية بدلا من ان تقوم على مجموعة من المبادئ النظرية المسلم بها. أما الأمر الحاسم بالنسبة إلى مفهوم العلم في الفكر الأنجلوسكسوني الحديث خصوصا، هو تراجع البحث في التحديد الماهوي للأشياء و إحلال مفهوم الوظيفة مكان مفهوم الجوهر هذا كله أدى إلى تقدم الأبحاث في العلوم الطبيعية، فالنتائج الإيجابية في القرن السابع عشر، التي أمكن للعلماء أن يكونوا منها النظرية العلمية، فنقرير الحقائق يجب أن

يبين على الملاحظة لاعلى الرواية غير المؤيدة بالنصوص والأدلة، وبالتالي تمثل الفلسفة الأنجلوسكسونية الانتفاضة العارمة على الفلسفة القارية و مبادئها.

هوامش المقال:

- 1 - Colkins.M.W, The The persistent problems of Philosophy,. (The Macmillan Company, London: Macmillan & Co.,Ltd 1907). p:17.
- 2 - رسل (برتراند). حكمة الغرب، ج 2، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة: فؤاد زكرياء. عالم المعرفة، الكويت، ط2، 1983. ص: 23.
- 3 - Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy. (London: J.M. Dent & Sons, LTD. 1912). P:27.
- 4 - Delisle (Burns.C.), The Growth of Modern Philosophy., (Sampson Low, Marston & Company, LTD., 1909)..p: 20.
- 5 - الحقيقة التي يتغال عنها بعض مؤرخي العلوم، سواء عن قصد أو غير قصد، هي أن اكتشاف الدورة الدموية يعود في حقيقة إلى العالم العربي الإسلامي "ابن النفيس". لكن لعبت الظروف التاريخية دوراً في نسبة هذا الاكتشاف للعالم " وليام هارفي" الذي كان الطبيب الخاص لفرنسيس بيكون.
- 6 - Seth (James)., English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit, p:27.
- Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy. op.cit .p:17.7
* يكاد يكون الإجماع عاماً بين مؤرخي الفلسفة الحديثة على أن ديكارت هو المنشئ لهذه الفلسفة، لأنه المسؤول على شكلها وعلى محتوى الموضوعات التي تناوّلها، وما إدراجها ليكون هنا إلى جانب ديكارت سوى لتبيين تشكّل الاتجاهين الرئيسيين للفلسفة الحديثة، العقلي والتجريبي.
- 8- Cousin (Victor), Cours of the history of philosophy. op.cit , p:80.
- 9- Loc.cit.
- 10- Sorley.W.R, A History of English philosophy., (Cambridge at The University Press., 1951).p:298.
* - للعلم أن "تقدم المعرفة" قد ترجمه إلى اللاتينية سنة 1632.
- 11- Sorley.W.R., A History of English philosophy, op.cit. p:15.
- 12- رسل (برتراند)، حكمة الغرب، ج2، مرجع سابق، ص: 82.
- 13- ميتز (رودلف)، " الفلسفة الإنجليزية في مائة عام"، ج: 1، تر/ فؤاد زكرياء، دار النهضة العربية. 1963. ص: 42-43.
- 14-Seth (James) ., English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit p:2.
- 15- الموسوعة الحرة ، الأنجلوسكسون بتاريخ 2016/10/04 <http://www.bbc.com ukhosory/ancient/Anglo-Saxons>.
- 16- بلكنيف سيمير وآخرون (تأليف جماعي): الفلسفات الأنجلوأمريكية - من تفكيك الواقع إلى إعادة بنائه، منشورات الإختلاف ، بيروت لبنان ، ط1، سنة 2016. ص: 11.
- 17- كريتشلي ، سامبون، الفلسفة القارية ، تر احمدشكيل، مؤسسة هندأوي، القاهرة ، مصر، ط1، سنة 2016، ص: 8.
- 18- كارل أوتو آبل: فيلسوف ومدرس فلسفة ألماني، ولد في 15 مارس سنة 1922 في دوسلدورف، ألمانيا، يعتبر من المجددين للفلسفة المتعالية الكانطية وذلك عن طريق ربطها بلغة الاتصالات الحديثة. يعتبر آبل أن اللغة هي الكم المتعالي الأول، بمعنى أنها تشكّل شرطاً قلياً لكل صحة فهم. من مؤلفاته: التفكير مع هابرماس ضد هابرماس.
- 19-Marcus Neustaedter, M.D., Experience; The rise and development of the concept in the history of philosophy.(The Greenwich Printing Company .N.Y., 1907).pp: 15-17.
- 20- بدوي (عبد الرحمن)، خريف الفكر اليوناني، خلاصة الفكر الأوروبي، . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، مصر، ط4. 1970. ص: 52-53.
- 21- Bacon Lord., Novum Organum. Book:I. ed. by Joseph Devey, M.A.,(New.York.,P.F.Coller and Sons .MCMII) . §: XII. p:13.
- 22-Alexander .S ., Locke.(London Archibald Constable & Co.Ltd., 1908). p:27.
- * هنتشسون فرنسيس (1694-1746). فيلسوف أخلاقي بارز من أصل اسكتلندي. زاول تعليمه في غلاسكو، وتوفي في دبلن. عمله الاساس هو " مبحث في أصل أفكارنا المتعلقة بالجمال والفضيلة"، كما أنه صاحب العبارة الشهيرة التي نقلها فيما بعد جيرمي بنتام "اللذة الأعظم لأكثر عدد من الناس" في تطور النفعية في بريطانيا .
- 23-From: The Dictionary of philosophy.,ed by. Dagobert D.Runes., Philosophical library.N.Y. P:133
** جوزيف باتلر: فيلسوف أخلاقي انجليزي (1692-1752) كانت تجمعها بصامويل كلارك مراسلات في أكسفورد، اهتم بالفلسفة الأخلاقية ..
- 24-Copleston. F, A History of Philosophy.,V:5. Pt: II. Berkeley to Hume.,(Image books. New. York.,).P:66.
- 25- Berkeley (George). Commonplace Book, In A.C Fraser,(ed). The Works of George Berkeley, Including His Posthumous Works.V:I., (Oxford, at the Clarendon Press.,mdcccci.) P: 18.
- 26-Seth (James) , English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit. p:4.
- 27-Locke (John) .An Essay concerning Human Understanding .B:II.ch:1.sect:2.(George Rout ledge and sons limited .New-York .London and c0). P:59
- 28- Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit p:2
- 29-Bacon Lord., Novum Organum. Book:I.§:III. Op.cit p:11.
- 30- Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit p:8..
- 31- Ibid. p:13.
- 32-" Theory is useless without practice, and practice blind without theory"., from: Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy.p:13.
- 33- Ibid. p:28.

34- Ibid. .p:29.

35 - بيكون (فرنسيس)، الأورغانون الجديد. (1-81) نقلاً عن: زكرياء (فؤاد)، أفاق الفلسفة، دار التنوير للطباعة والنشر. ط 1 - 1988. ص: 92.

36 - Hobbes. Works, I-7. In Seth (James) (ed). English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit .p:56.

37- Hobbes, Works, I- 8. In Seth (James) (ed). Loc.cit.

38-Locke, John. Some Thoughts concerning Education in Aaron (ed). Locke.,(2nd ed.Oxford press.1955) .p: 11

39-شاخت (ريتشارد)، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة أحمد حمدي محمود. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط. 1997، ص ص: 126-127.

40-A. Johnston . M.A.,The Development of Berkeley'S philosophy, (Macmillan and co., limited st.Martin'S street,London.1923) . P:2.

41-Berkeley. George., Works. I.92., In Johnston . M.A.,The Development of Berkeley'S philosophy. Op.cit. P:2

42- A. Johnston .M.A.,The Development of Berkeley'S philosophy., Op.cit .p: 3.

43 - Locke (John)., An Essay Concerning H.U., in A. J. Ayer. And R. Winch (eds), British Empirical Philosophers., (Routledge and Regan Paul. L T D London) 1965. P: 31.

44 . هذه الأفكار كتبها لوك في تأملاته بفرنسا، وهو يشير إلى معظم الأفكار والمبادئ الفلسفية التحريية التي نعتقد أنها تبلورت في فرنسا وهولندا أكثر منها في بريطانيا، وقد أورد كل من Aaron .R. في كتابه: لوك، وأيضاً A.C,Fraser في كتابه: (John Locke) بعض المقتطفات من هذه الرسائل الهامة التي تحدد معالم الفكر الفلسفي عند لوك قبل أن يظهر في شكل رسمي في "الفهم البشري".

Aaron. R., John Locke, op.cit. p:75.45-

46-شاخت (ريتشارد)، رواد الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص: 124.

47-المرجع نفسه، ص 46.